

مملكة إيبلا

أقام الشعب الكنعاني الذي سكن منطقة شمال ووسط بلاد الشام وساحلها، حضارة ضخمة وكبرى في وسط وشمال سورية كان مركزها مدينة إيبلا. وأسسوا على الساحل السوري عدة مدن أهمها: صيدا وصور وعكا وعمريت وبيبلوس وأوغاريت. وعرف الكنعانيون أيضا باسم الفينيقيين من قبل الإغريق وشاعت هذه التسمية، وخاصة منذ بداية النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد

تقع مدينة إيبلا القديمة، وكانت العاصمة لشمالي سورية ما بين /2400-2300ق.م/، في محافظة إدلب الحالية، إلى الجنوب الشرقي من بلدة سراقب الحالية تحت أنقاض تل مريخ، الذي بدأت التنقيب فيه بعثة إيطالية برئاسة (باولو ماتيه) في عام /1964م، حيث كشفت عن جزء من السور والبوابة الغربية، كما كشفت عن بقايا معبد في قمة التل.

وكشفت في القسم الجنوبي الغربي من مركز المدينة (الأكربول) عن الجزء الأكبر من القصر الملكي، وعن بعض المباني العامة الأخرى التي تشكل مع القصر الملكي مباني مركز المدينة. كما تم اكتشاف وثائق القصر الملكي، المؤلفة من آلاف الألواح الفخارية المنقوشة مسماريا بلهجة إيبلا التي ترتبط باللهجة الأكادية الشرقية واللهجة الأوغاريتية الساحلية.

تتألف المدينة من القصر الكبير والقصر الجديد والقصر الشمالي ومعبد عشتار، ويحيط بالمدينة سور يشمل القلعة.

عمارة إيبلا

1- مركز المدينة (الأكربول):

يكتسب مركز المدينة أهمية خاصة لعدة أسباب:

- أنه يقع على هضبة ترابية يبلغ ارتفاعها حوالي 17/م عن سور المدينة، مما يعطيه إمكانية الإشراف على مناطق بعيدة حول المدينة.
- يشكل مركز المدينة ملتقى الشوارع الأربعة الرئيسية، والتي تنتهي إلى أبواب المدينة.
- يضم مركز المدينة المباني السكنية العامة، التي تتفتح أبوابها على شوارع فرعية تتعامد مع الشوارع الرئيسية في المدينة.

2- القصر الملكي:

إن الأجزاء التي كشفت عنها من القصر الملكي لا تعطي صورة كاملة عنه، لكن من خلال المقارنة مع القصور الرافدية المعاصرة له وشكل بنائها، يمكن تسليط الضوء عليه وعلى أهميته المعمارية.

بنى القصر في عهد الملك اغريش حلم، يتألف بناؤه من باحة مكشوفة تحيط بها الأروقة التي تحملها أعمدة خشبية، تطل هذه الباحة على المدينة، وهي بمثابة ساحة الاجتماعات والاستقبالات، أما الأروقة المكتشفة حول الباحة فهما رواقان فقط شمالي وشرقي، أقيمت في أحد جوانب الباحة منصة الشرف (المصطبة)، التي كانت مخصصة لجلوس الملك خلال الاجتماعات أو الاستقبالات، وفي منتصف الرواق الشرقي يقع الدرج الكبير، الذي يبلغ طوله 22/م، ومنسوب ارتفاعه 6/م (معروف بالدرج الاحتفالي) وهو مزين ببعض الزخارف النباتية والهندسية على شكل ترصيع.

تعددت أقسام القصر ما بين قسم الإقامة وقسم الاستقبال وقسم الخدمات، إضافة إلى الأرشيف (المكتبة)، الذي كشف فيه عن الآلاف من الرقم الفخارية التي كان لها أكبر الأثر في تغيير المنحى الحضاري والتاريخي، وتوضيح الكثير مما كان غامضاً أو ناقصاً في التاريخ السياسي والحضاري لمنطقة الشرق العربي، خلال الألف الثالث والثاني قبل الميلاد.

تتضح من خلال المقارنة بين القصر الملكي في إيبلا، والقصور الرافدية المعاصرة الأمور التالية:

- 1- يضم القصر الملكي في إيبلا ساحة داخلية لها أروقة، بينما لا تضم الساحات في القصور الرافدية أروقة.
- 2- تحتوي الساحة في قصر إيبلا على منصة لجلوس الملك، ولا يوجد لها مثل في القصور الرافدية.
- 3- تختلف العمارة في إيبلا عن العمارة الرافدية بأنها تقوم على أساسات حجرية.
- 4- يتشابه القصر في إيبلا مع القصور الرافدية بوجود الساحات الداخلية المغلقة.
- 5- يتشابه البناء في إيبلا مع العمارة الرافدية بسماكة الجدران ومادة البناء وهي اللبن والقرميد.
- 6- كما تتشابه طريقة التسقيف في العمارة الرافدية وفي عمارة إيبلا.

إلا أن القصور الرافدية تبقى لها خاصية وجود الغرف والصالات بأعداد كبيرة، وهذه الخاصية لم تتوفر في العمارة السورية إلا في قصر ماري، الذي كان للعمارة الرافدية تأثير مباشر عليه، بينما تأثير العمارة الرافدية على العمارة في إيبلا يبقى أقل منه في ماري وتل حلف.

3- المعابد:

كان لبناء المعابد أهمية خاصة في تاريخ العمارة في إيبلا، بحيث بنيت المعابد على فترات متعاقبة في مركز المدينة، قرب القصر الملكي، حتى يمكن الوصول إليها من كل الجهات، وبشكل تكون فيه المعابد مشرفة على جوانب المدينة.

والمعابد في إيبلا مقسمة تقسيماً تماثلها بالنسبة للمحور الطولي للمعبد، بحيث يبدأ مخطط المعبد: بالمدخل ثم الصالة الأولى فالقسم المقدس وبقية أجزاء المعبد، ومن أهم معابد إيبلا: معبد عشتار والمعبد الكبير الذي يتألف من ثلاثة أقسام رئيسية هي:

1- القسم الأمامي (المدخل).

2- القسم المقدس وهو عبارة عن صالة مستطيلة الشكل.

3- القسم الخلفي.

والتشكيل الداخلي للمعبد عبارة عن قاعات مستطيلة الشكل، تتوضع بشكل عرضاني في المسقط. يتم الدخول منها إلى الصالة المقدسة عبر مدخل محوري مع المدخل الرئيسي، والصالة المقدسة ضخمة إلى حد أنها تتسع إلى حد /50/ شخصاً، ويأتي بعد القسم المقدس القسم الخلفي.

4- البيوت والمساكن:

أما بالنسبة لبناء البيوت في إيبلا، فهي لا تختلف في تخطيطها عن مخططات البيوت المعروفة في شمال سورية في تلك الفترة، وهو المخطط المعروف باسم مخطط بيت هيلاني، الذي يتألف من غرفة أمامية تأتي بعدها صالة مستطيلة، يتألف المسكن في إيبلا بشكل عام من طابق واحد، ويشتمل على كافة العناصر المعمارية الضرورية، من غرفة معيشة ونوم ومونة ومطبخ وكلها تتوزع حول فناء داخلي مكشوف بشكل متمائل، كما لا يوجد نوافذ أو فتحات إلى الخارج باستثناء الأبواب التي تنفتح على الشوارع الفرعية.

يحيط بمدينة إيبلا سور محيطه حوالي /3/ كم، مبني من اللبن ومدعم بمداميك حجرية ضخمة من الأسفل حتى ارتفاع /4/ م، كما تتخلله الأبراج الداعمة من كل الجوانب. ويأخذ السور شكل بيضوي يبلغ طول الضلع الأطول فيه حوالي /900/ م، والأقصر حوالي /700/ م، وتبلغ مساحة المدينة المحصورة ضمن السور حوالي /56/ هكتار. ويتخلل جدار السور أربع بوابات ضخمة تحف بها الأبراج من الجوانب، وهذه البوابات مؤلفة من مداخل ثلاثية الفتحات أو ثنائية الفتحات، تؤدي إلى مركز المدينة عبر الشوارع الرئيسية الأربعة، بحيث تشكل صورة شعاعية مركزها في مركز المدينة، وتتعامد الشوارع الرئيسية مع شوارع فرعية ضيقة مشكلة مساحات هندسية مختلفة الأشكال، وهي المسطحات التي بنيت عليها منازل المدينة وحدائقها وساحاتها المحيطة بمركز المدينة (الأكروبول).

- طريقة وعناصر الإنشاء:

اعتمدت طريقة الإنشاء في عمارة إيبلا على المواد المعمارية المتوفرة في منطقة المدينة أو الأماكن المجاورة لها، والتي كانت على الأغلب ضمن مملكة إيبلا الواسعة الأرجاء. وفي أسلوب الإنشاء والعناصر المعمارية يمكن دراسة بناء الجدران والأعمدة إضافة إلى شكل الأسقف والأرضيات.

1- الجدران والأعمدة:

كانت الجدران في إيبلا مبنية من القرميد المشوي واللبن المجفف على الشمس، إضافة إلى المداميك الحجرية الضخمة التي كانت تشكل الأساس والمداميك الأولى من الجدار، والجدران في إيبلا على نوعين، جدران السور وجدران المباني:

- بالنسبة لجدران السور كانت تبنى من اللبن والقرميد على أساس حجري ضخمة، من عدة مداميك ترتفع عدة أمتار وهي من الحجر الكلسي والبازلتية الأسود، الذي كان يجلب غالبا من مناطق مجاورة في الجنوب والمداميك الحجرية كانت من أحجار ضخمة تصل قياساتها إلى /180 - 120 - 200/ سم، بينما يصل سمك جدار السور إلى عدة أمتار.
- أما جدران البيوت والقصور فكانت من اللبن والقرميد على أساس حجري أيضا، بحيث تصل سماكتها لأكثر من متر واحد.

2- الأسقف والأرضيات:

- استعملت الأسقف المستوية في أبنية إيبلا، وكانت تنشأ من العوارض الخشبية المتوفرة بكثرة، وذلك بوضعها على الجدارين المتقابلين في الغرفة أو الصالة، التي كان عرضها لا يتعدى /3-5/ م، ثم توضع فوق العوارض الخشبية طبقة من الأغصان الصغيرة أو الحصير، ويوضع فوقها طبقة من الطين تليها طبقة من التراب فطبقة من الطين أو القار الذي يشكل الطبقة العازلة. والأسقف في إيبلا لا تعرف لنا إلا من خلال الاستنتاج، لأنه لم يكشف عن أي جزء من الأسقف، بسبب تدهمها أو التهامها من الحريق الذي دمر المدينة كلها. كما غطيت الفتحات في الأبواب والنوافذ بساكف مستقيم من الحجر كان يرتكز على قائمين حجريين يحددان عرض الفتحة.
- أما الأرضيات فقد كان هناك عدة طرق لرصفها، والأرضيات في إيبلا غير واضحة بسبب الحريق والخراب الذي لحق بالقصر والمدينة، ففي بعض الأقسام كانت الأرضيات مرصوفة بالحجارة على نحو مماثل للبيوت المنتشرة قبل قرن من الآن، بينما نجد أقسام أخرى من القصر كانت الأرضيات فيها مكسية بطبقة جصية تعطي للأرضية صلابة جيدة.

- أهم اللقى والمكتشفات الأثرية:

تعتبر وثائق القصر الملكي أهم المكتشفات واللقى في موقع إيبلا، والتي تؤرخ لمملكة إيبلا وتوثق المرحلة التاريخية التي عاصرتها هذه المملكة، وهي عبارة عن الآلاف من الألواح أو الرقم الطينية (الفخارية) والمنقوشة مسماريا بلهجة إيبلا، منها رقم /21-24سم/ يتضمن أقدم معاهدة بين إيبلا وجاراتها، تكشف عن ذهنية سياسية وحربية متقدمة تفرض شروطا والتزامات. وعثر على حوض من الفخار في معبد إيبلا، منقوش عليه مجموعة من الرجال يتصافحون ويتعاهدون على حلف سمي بحوض السلام.

اكتشف في عام /1994م/ بئران يحتويان على كمية من الطاسات والأباريق، وكذلك تماثيل ثعابين وثيران، وعلى أساور وخرزات من معادن وأحجار ثمينة ومن شخصيات أنثوية فخارية، وبقايا أضاحي حيوانية كانت قد ألقيت في البئرين في أزمان مختلف ما بين /1750-1900 ق.م/.

كما عثر على العديد من التماثيل والحلي والأباريق، أغلبها محفوظ في متحف إدلب منها تماثيل الأسد، وبعضها الآخر في متحف حلب منها قلادة ذهبية وبعض الحلي الأخرى.

ولعل صارغون أو حفيده "نارام سين" كما ادعى هو الذي قضى على إيبلا حوالي عام /2300 ق.م/، ثم نهضت إيبلا فيما بعد لتقوي علاقاتها مع جيرانها في الشرق.

د. عبير شدود